مجلس العدل

وحكاية أخرى

كتبها
محمد رجب

رسوم
محمد نبيل

سقيم

جميع الحقوق محفوظة لشركة سفيم

رقم الإيداع : ٢٢٨٧٣ / ٢٠٠٥

الترقيم الدولى : I.S.B.N. 977 - 361 - 391 - 7

مَا أَرْوَعَكَ يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِين

رُحْتُ أَتَأَمَّلُ أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ فِى دَهْشَةٍ...

كَانَ كَالرَّاعِى، مُتَّكِئًا عَلَى عَصَاهُ. يَدُورُ عَلَى القَصْعَةِ وَالقِدْرِ، يَصِيحُ: يَرْفَأُ. زِدْ لَحْمًا هُنَا. كَثِّرِ المَرَقَ. زِدِ الخُبْزَ !

وَخَادِمُهُ لاَيَنِى عَنِ الحَرَكَةِ.

تَحَسَّسْتُ جِرَابِى. لَدَىَّ طَعَامٌ دَسِمٌ وَفِيرٌ. أَطْيَبُ مَذَاقًا وَأَلَذُّ. سُرْعَانَ مَا انْصَرَفَ الخَلِيفَةُ «عُمَرُ». انْطَلَقْتُ فَى أَثَرِهِ.

الصُّرَّةُ الثَّقِيلَةُ مَحْمُولَةٌ عَلَى ظَهْرِى.

حِينَ أَذِنَ لِى بِالدُّخُولِ لَمْ يَعْرِفْ مَنْ أَنَا ..

فِى الدَّارِ يَجْلِسُ الفَارُوقُ عَلَى جِلْدِ شَاةٍ وَيَتَّكِئُ عَلَى وِسَادَتَينِ مَحْشُوَّتَينِ بِاللِّيفِ.

– السَّلاَمُ عَلَيكَ أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ.

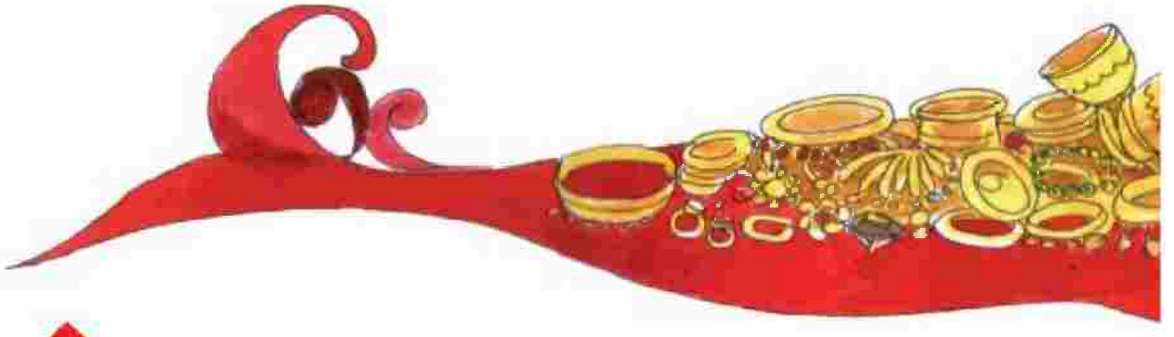

رَدَّ السَّلامَ. دَعَانِى لِلْجُلُوسِ.. جَلَسْتُ. أَلْقَى إِلَىَّ بِإِحْدَى الوِسَادَتَينِ وَهُوَ يَقُولُ:

– مَرْحَبًا..

– أَعَزَّ اللَّهُ أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ إِنَّنِى.....

قَاطَعَنِى صَائِحًا بِمَنْ دَاخِلَ الدَّارِ:

– أَيْنَ الغَدَاءُ يَا أُمَّ كُلْثُومٍ ؟

أَعْلَمَنِى بِأَنَّهَا ابْنَةُ «عَلِىِّ بْنِ أَبِى طَالِبٍ». تَحَدَّثَ عَنْ أَدَبِهَا وَعِلْمِهَا.

أَنَا الَّذِى أَنِفْتُ أَنْ أَطْعَمَ اللَّحْمَ وَالمَرَقَ.. كُنْتُ مَذْهُولاً !

أَتَدْرُونَ مَاطَعَامُ خَلِيفَةِ المُسْلِمِينَ؟

خُبْزٌ فَوْقَهُ قَلِيلٌ مِنَ المِلْحِ !

أَقْبَلَ عَلَى طَعَامِهِ بِشَهِيَّةِ النَّمِرِ الجَائِعِ قَالَ: كُلْ بِاسْمِ اللَّهِ !

لَمْ أَقْوَ عَلَى العِصْيَانِ. بَعْدَ لُقَيْمَتَينِ تَوَقَّفْتُ. لاَ. سَأُكْمِلُ وَجْبَتِى، فِيمَا بَعْدُ، بِمَا مَعِى مِنْ طَعَامٍ وَفِيرٍ..

عَادَ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ يَصِيحُ: إِلَينَا بِالشَّرَابِ..!

حَمِدَ اللَّهَ تَعَالَى عَلَى أَنْ أَطْعَمَهُ مِنْ جُوعٍ. شَرِبَ مَنْقُوعَ الشَّعِيرِ حَتَّى ارْتَوَى وَشَرِبْتُ. حَمِدَ اللَّهَ عَلَى أَنْ مَنَعَ عَنْهُ الظَّمَأَ.

نَظَرَ إِلَى الصُّرَّةِ: مَا الحِكَايَةُ ؟

– إِنَّنِى يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ مَبْعُوثُ «سَلَمَةَ بنِ قَيسٍ»..

- مَرْحَبًا، كَيفَ «سَلَمَةُ» ؟

- بِخَيرٍ...

- مَا أَخْبَارُكُم ؟

- بِحَمْدِ اللَّهِ ظَفِرْنَا عَلَى عَدُوِّنَا...

فَكَبَّرَ اللَّهَ ثَلاثًا عَلَى تَوْفِيقِهِ وَنَصْرِهِ لِلإِسْلامِ وَأَهْلِهِ.

تَابَعْتُ أَقُولُ :

- بَعْدَ أَنْ سَبَينَا الذُّرِّيَّةَ وَجَمَعْنَا الثَّرْوَةَ فُوْجِئْنَا بِوُجُودِ حُلِيٍّ ثَمِينَةٍ بَيْنَهَا.

- لِمَنِ الحُلِيُّ ؟

- غَنِيمَةٌ مِنَ العَدُوِّ.

- وَأَينَ هِيَ ؟

- فِي الصُّرَّةِ يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ.

شَاهَدَ «عُمَرُ» الحُلِيَّ فَوَثَبَ فِي غَضَبٍ !

- مَا بَالُ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ ؟

كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْنِي رَاحَ يَصِيحُ: وَيْلَكَ يَا عُمَرُ. لاَ أَشْبَعَ اللَّهُ لَكَ بَطْنًا !

ذُهِلْتُ. وَفِي لَحْظَةٍ امْتَلأَ المَكَانُ بِالخَدَمِ وَالجُنُودِ.

هَلْ ظَنُّونِي أَغْتَالُ أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ ؟

أَشَارَ إِلَيهِم أَنْ يَأْخُذُونِي .

صِحْتُ:

– مَا أنَا يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ إلاَّ رَسُولٌ .

خَرَجَ إلَينَا . نَظَرَ إلَيهِم فَأطْلَقُوا سَرَاحِي..

نَادَى خَادِمَهُ: يَرْفَأُ...

– لَبَّيكَ أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ.

– هَبْهُ رَاحِلَتَينِ .

وَالْتَفَتَ إلَيَّ وَقَالَ مُنْذِرًا: عَلَيكَ الوُصُولُ بِلا تَوَانٍ. وَاللَّهِ إنْ لَمْ يَقْتَسِمْ جُنْدُ «سَلَمةَ» الحُلِيَّ لَيَكُونَنَّ انْتِقَامِي مِنْكُمَا رَهِيبًا ..!

وَصَلْتُ إِلَى مُعَسْكَرِ «سَلَمةَ» .. فِى خَيْمَتِهِ يَنْتَظِرُ. دَخَلْتُ عَلَيهِ بِالصُّرَّةِ...

- مَا هَذَا ؟

- الحُلِىُّ أَيُّهَا القَائِدُ..

- لَمْ يَقْبَلْهَا أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ ؟

- نَعَمْ .. لَمْ يَقْبَلْهَا .

فَمَاذَا نَحْنُ صَانِعَانِ بِهَا؟

يَأْمُرُكَ أَنْ تَقْسِمَهَا بَيْنَ الجُنْدِ قَبْلَ..

قَبْلُ مَاذَا ؟

قَبْلَ أَنْ يُصِيبَنَا انْتِقَامُهُ !

نَهَضَ مَفْزُوعًا. حَمَلَ عَنِّى الصُّرَّةَ إِلَى خَارِجِ الخَيْمةِ : إِلَىَّ يَا جُنْدَ الحَقِّ .. !

كَالجَوَادِ الجَامِحِ مَضَى يُوَزِّعُ الحُلِيَّ.

لَمْ أَقْدِرْ عَلَى مُقَاطَعَتِهِ وَلاَ مُعارَضَتِهِ..

تَبا.. ! أَلَسْتُ جُنْدِيا مِثْلَهُم ؟ أَفَلا أَسْتَحِقُّ جَوْهَرَةً ؟، أَنَا الَّذِى حَمَلْتُ الصُّرَّةَ فِى الذَّهَابِ والإِيَابِ ؟

فِى النِّهَايَةِ آبَ إِلَى الخَيْمَةِ... لَقَدْ آثَرْتُكَ بِهَدِيَّةٍ...

طَفَرَتِ الدُّمُوعُ مِنْ عَيْنِى: صَحِيحٌ ؟

فَتَحَ يُمْنَاهُ، أَخَذَ بَرِيقُهَا بَصَرِى ...

قَدَّمَهَا إِلَيَّ وَهُوَ بَاسِمٌ: تُنَاسِبُكَ هَذِهِ الجَوْهَرَةُ ؟

- بِلا رَيْبٍ...

- لَمْ أَجِدْ غَيْرَكَ يَسْتَحِقُّهَا ..

- أَشْكُرُكَ أَيُّهَا القَائِدُ ..

ثُمَّ نَظَرْتُ إِلَيهِ سَائِلاً : وَأَنْتَ ؟

هَزَّ رَأْسَهُ. لَمْ تَخْتَفِ ابْتِسَامَتُهُ :

- لاَ، وَهَلْ آثَرَ «عُمَرُ» نَفْسَهُ بِحُلِيَّةٍ ؟!

مَجْلِسُ العَدْلِ

لابْنِ خَلْدونَ حكَايَةٌ عَجيبَةٌ.. يومَ تَوَلَّى القَضَاءَ فِى "مِصْرَ" المَحْرُوسَةِ..

قَالَ: وَلأَنِّى السُّلْطَانُ الظَّاهِرُ "بَرْقُوقُ" قَضَاءَ الشَّافِعِيَّةِ..

غَضِبَ السُّلْطَانُ عَلَى القَاضِى "جَمَالِ الدِّينِ بنِ سُلَيْمَانَ". عَزَلَ السُّلْطَانُ القَاضِىَ. أَخَذْتُ مَنْصِبَ "جَمَالِ الدِّينِ". مَا فَرِحْتُ بِالمَنْصِبِ. كَانَ ذَلِكَ سَنَةَ (٧٩٠) مِنَ الهِجْرَةِ الشَّرِيفَةِ. حَاوَلْتُ. لَمْ يَنْفَعِ اعْتِذَارِى عَنِ المَنْصِبِ. فَوَّضْتُ أَمْرِى لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ. فِى القَضَاءِ مَصَاعِبُ وَمَظَالِمُ.. صَادَفْتُ فِيهِ صِنْفًا مِنَ النَّاسِ غَرِيبًا. نَاسٌ يَكْتُبُونَ عَرَائِضَ الدَّعْوَى. يُفْتُونَ النَّاسَ كَثِيرًا. كَفُّ المُفْتِى مَمْدُودَةٌ لِمَنْ يَدْفَعُ أَكْثَرَ..!

لَكِنَّنِى -رَجُلَ القَضَاءِ - لاَ أَقْبَلُ. القَضَاءُ عِنْدِى نَزِيهٌ. فِى مَجْلِسِ الحُكْمِ أَقْبَلَ خَصْمَانِ. جَاءَ كُلُّ خَصْمٍ بِشُهُودِهِ. حَكَمْتُ لِمَنْ هُوَ أَقْوَى أَدِلَّةً

وَأَصْدَقُ شُهُودًا . فِى مَرّةٍ ثَانِيَةٍ جَاءَ خَصْمٌ وَمَعَهُ نَفْسُ الشُّهُودِ . حَكَمْتُ لِلطَّرَفِ الثَّانِى . انْفَضَّ المَجْلِسُ .

اسْتَدْعَيتُ الشُّهُودَ .. سَأَلْتُهمُ : لِمَاذَا شَهِدْتُمْ زُورًا؟

أَجَابَنِى مَنْدُوبٌ عَنْهُمْ : وَكَيْفَ نُطْعِمُ أَوْلاَدَنَا ؟

لَمْ أُصَدِّقْ أُذُنِى .. مَاذَا قُلْتَ؟

قَالَ آخَرُ : يَا جَنَابَ القَاضِى،

الأَسْعَارُ فِى غَلاءٍ وَنَحْنُ...

صِحْتُ فِيهِمَا :

– مَعْقُولٌ..؟ أَتَأْكُلُونَ الحَرَامَ ؟

– وَمَاذَا نَصْنَعُ ؟

أَصْدَرْتُ أَمْرِى . حَبَسْتُهُم . جَلَدْتُهُم .

شَهَّرُوا بِهِمْ... أَمَرَنَا رَبُّ العِزَّةِ أَلاَّ نَقْبَلَ

لأَمْثَالِهِم شَهَادَةً أَبَدًا ..

• • •

كُنْتُ فِى دَارِى أُرَتِّلُ القُرْآنَ .

طَرَقَاتٌ عَلَى البَابِ . فَتَحَ

خَادِمِى . هَرْوَلَ يَقُولُ : سَيِّدِى، سَيِّدِى...

– مَا لَكَ ؟

– جُنْدٌ كَثِيفٌ عَلَى البَابِ .

– مَاذَا يُرِيدُونَ ؟

مَعَهُمْ مُتَّهَمٌ ...

– مَنْ هُمْ ؟

– يَقُولُونَ جُنْدُ الأَمِيرِ «نَاصِرِ الدِّينِ».

– خُذْهُم إِلَى مَجْلِسِ الحُكْمِ.

لا يُرِيدُونَ.. فَكَّرْتُ. قُلْتُ لَهُ : جِئْنِي بِقَائِدِ الجُنْدِ..

عَادَ يَصْحَبُهُ البَدِينُ. فَوْقَ رَأْسِ البَدِينِ عِمَامَةٌ ضَخْمَةٌ. يَتَمَنْطَقُ بِنِطَاقٍ. لَهُ شَارِبٌ مَفْتُولٌ..

عَفْوًا، جَنَابَ القَاضِي..

– مَا الأَمْرُ ؟

بَرَمَ شَارِبَهُ. قَالَ:

– لَدَينَا مُتَّهَمٌ خَطِيرٌ..

– مَا التُّهْمَةُ ؟

– اللَّعِينُ سَرَقَ مَوْلاَنَا الأَمِيرَ.

– إِلَيَّ بِهِ..

انْطَلَقَ البَدِينُ. عَادَ يَدْفَعُ رَجُلاً ضَئِيلاً. سَأَلْتُهُ:

– سَرَقْتَ الأَمِيرَ ؟

نَظَرَ إِلَيَّ بِانْكِسَارٍ. طَأْطَأَ رَأْسَهُ. صَمْتٌ غَرِيبٌ .. مِنْ دَاخِلِي شَعَرْتَ بِأَنَّهُ مَظْلُومٌ...

قُلْتُ لِلبَدِينِ:

– دَعْهُ لِي..

لَمْ يَتَحَرَّكِ البَدِينُ. فَغَرْفَاهُ..

لاَتَفْهَمُ ؟ اذْهَبْ..

مَاذَا يَقْصِدُ جَنَابُ القَاضِى ؟

كَلامِى وَاضِحٌ. خُذْ جُنْدَكَ..

إِلَى أَيْنَ ؟

إِلَى أَمِيرِكَ...

وَاللَّعِينُ ؟

أَسْتَجْوِبُهُ...

وَلِمَاذَا لاَتَسْتَجْوِبُهُ أَمَامِى ؟

شَعَرْتُ بِغَضَبٍ كَاسِحٍ. رَفَعْتُ قَبْضَتِى مُنْذِرًا : اذْهَبْ، وَإِلاَّ...

قَالَ مُعَانِدًا : مَاذَا ؟ تَحْبِسُنِى ؟

نَفِدَ صَبْرِى. صِحْتُ: يَاحَاجِبُ، يَاحُرَّاسُ، خُذُوهُ !

انْقَضُّوا عَلَيهِ كَتِّفُوهُ.. اذْهَبُوا بِهِ إِلَى المَحْبَسِ...

زَمْجَرَ. قَاوَمَ كَثَوْرٍ هَائِجٍ. تَكَأْكَئُوا عَلَيهِ. اقْتَادُوهُ بَعِيدًا..

أَمَرْتُ لِلضَّئِيلِ بِفُطُورٍ. انْقَضَّ عَلَى الطَّعَامِ بِشَرَاهَةٍ.

الحَمْدُ لِلَّهِ... سَأَلْتُهُ: مَنْ أَنْتَ ؟

- «إِبْرَاهِيمُ السَّلْمَانِىُّ»..

- مِنْ أَيْنَ ؟

- إِسْكَنْدَرَانِىٌّ .

- مَا جَاءَ بِكَ إِلَى قَاهِرَةِ المُعِزِّ ؟

تَبَسَّمَ ابْتِسَامَةً حُلْوَةً أَضَاءَتْ وَجْهَهُ الأَسْمَرَ: لِى هُنَا عَشْرُ سِنِينَ.

– مُتَزَوِّجٌ ؟

– وَعِنْدِى وَلَدَانِ..

– وَعَمَلُكَ ؟

– تَاجِرُ حُبُوبٍ وغِلالٍ.

– مَا الحِكَايَةُ ؟

– بَسِيطَةٌ. بَاعَنِى الأَمِيرُ بَيْتًا قُرْبَ حَيِّ الحُسَيْنِ.

– ثُمَّ ؟

– بِالأَمْسِ اشْتَرَيتُ البَيتَ وَاليَومَ ذَهَبْتُ لأَتَسَلَّمَهُ..

– حَصَلَ..؟

– لاَ.. فَاجَأَنِى جُنْدُ الأَمِيرِ..

– هَل آذَوْكَ..؟

– مَنَعُونِى وَضَرَبُونِى وَجَاءُوا بِى إِلَيكَ..

أَطْرَقْتُ أُفَكِّرُ. سَأَلْتُهُ: مَعَكَ دَلِيلٌ ؟

– بِالطَّبْعِ..

وَاسْتَخْرَجَ مِنْ جَيبِهِ وَرَقَةً.

طَالَعْتُ الوَرَقَةَ.

– مَعَكَ شُهُودٌ ؟

– كُلُّ السُّوقِ يَشْهَدُ..

- حَسَنًا، اذْهَبْ وَتَوَارَى أَنْتَ وَأَهْلُكَ بَعِيدًا..

- إِلَى مَتَى ؟

- إِلَى أَن يَكْشِفَ اللَّهُ البَاطِلَ..

- شَكَرَنِى بِالدَّمْعِ. انْطَلَقَ كَالرِّيحِ مِنْ بَابٍ خَلْفِىٍّ..!

لَمْ يُصَدِّقِ الجُنْدُ أَنَّ الرَّجُلَ فَرَّ.. ! لَو لَحِقُوا بِهِ لَقَتَلُوهُ ...

صِحْتُ فِيهِم فَانْطَلَقُوا مُبْتَعِدِينَ يُزَمْجِرُونَ..

أَقْبَلَ التُّجَّارُ يَشْهَدُونَ...

أَقْسَمُوا أَنَّ الأَمِيرَ قَبَضَ الثَّمَنَ مِنْ «إِبرَاهِيمَ»

عَلَى أَعْيُنِهِم..

شَكَرْتُهُم وَانْطَلَقْتُ إِلَى السُّلْطَانِ..

سَوفَ أَحْكِى وَيَسْمَعُ السُّلْطَانُ..

السُّلْطَانُ سَيَرُدُّ الحَقَّ إِلَى صَاحِبِهِ .. أَكِيدُ..!

لَكِنَّ لِلزَّمَنِ أَسْرَارَهُ وَأَلْغَازَهُ...

مَاكِدْتُ أَفْرَغُ مِنْ حِكَايَتِى حَتَّى هَزَّ

السُّلْطَانُ رَأْسَهُ...

قَالَ : أُوصِيكَ بِالمُصَالَحَةِ..!

خَرَجْتُ أَجُرُّ قَدَمِى....

لاَرَيبَ أَنَّ «نَاصِرَ الدِّينِ» وَأَصْحَابَهُ

الأُمَرَاءَ كَانُوا قَدْ سَبَقُونِى...

السُّلْطَانُ لَمْ يَسْمَعْنِى. امْتَلأَتْ أُذُنَاهُ بِدَسِّهِم...

فِى اليَومِ التَّالِى كُنْتُ فِى المَدْرَسَةِ القَمْحِيَّةِ.. هُنَاكَ كُنْتُ أُدَرِّسُ فِقْهَ الشَّافِعِيَّةِ ..

عَزَلَنِى السُّلْطَانُ. عَادَ «جَمَالُ الدِّينِ» إِلَى مَنْصِبِهِ وَعُدْتُ إِلَى المَدْرَسَةِ ..

فُوجِئْتُ فِى الفَصْلِ بِتِلْمِيذَينِ جَدِيدَينِ .. مَنْ هُمَا .. ؟ حَزِّرُوا .. !

«شِهَابُ الدِّينِ» وَأَخُوهُ «نُورُ الدِّينِ» ..

وَلَدَا الأَمِيرِ «نَاصِرِ الدِّينِ» ذَاتِهِ...

الرَّجُلُ الَّذِى سَعَى وَأَقَالَنِى مِنَ القَضَاءِ...

وَلَدَاهُ يَدْرُسَانِ عَلَى يَدَيَّ قَضَاءَ الشَّافِعِيَّةِ ؟

أَنَا بِالذَّاتِ ؟ سُبْحَانَ اللَّهِ.. !